الفصل الأول

عصر إبراهيم اليازجي

١ – الحركة السياسية

تمخّض عصر الشيخ إبراهيم عن حوادث اضطراب فى طول جبل لبنان وعرضه أواسط القرن التاسع عشر ، كان أهمها واقعة السنة الـ ١٨٦٠ م وقد اندلعت نيرانها بين الدروز والمسيحيين ، بإيعاز من الدولة العثمانية التى أمدت الدروز بالأسلحة ورغبت إليهم أن يقطعوا دابر المسيحيين من البلاد الخاضعة لها ، لبنان وسوريا ، ظنًّا منها أنها بذلك تكف أيدى الدول الأوربية المسيحية عن التدخل فى شؤونها ، لأن أوربا كانت تمد أصابعها إلى شؤون العثمانيين بحجة حماية نصارى الشرق . فأجبرتها الدولة الروسية فى مؤتمر باريس على أن تساوى بين رعايا السلطنة قاطبة ، فيما يتعلق بالضرائب والوظائف بدون تمييز فى المذاهب ، وأن ترفع الضيم عن النصارى الذين كانوا يصادفون إهانات متعددة من بعض إخوانهم المسلمين الذين لم ينالوا نصيباً وافراً من العلم والمعرفة وجهلوا كثيراً من نواهى الدين الإسلامى الحنيف الذى أوصى خيراً بأهل الكتاب [1] .

ومن جهة ثانية نرى قبل هذا التاريخ أن الدروز والمسيحيين كانوا متحابين متصافين ولا سيما فى لبنان زمن الأميرين الكبيرين فخر الدين المعنى الثانى وبشير الشهابى الكبير الملقب بأبى سعدى . تشهد بذلك الأحزاب : القيسى واليمنى واليزبكى والجنبلاطى حيث كانت تضم بينها مختلف اللبنانيين من الطائفتين الكريمتين .

---

(١) « مشهد العيان » . طبعة مصر ، و « مجمع المسرات » . مطبعة الاجتهاد ، بيروت سنة ١٩٠٨ ص ٣٤ – ٤٧ و « قوافل العروبة ومواكبها » لمحمد جميل بيهم . مطبعة الكشاف ، بيروت ص ١٣ و « المقاطعة الكسروانية » ص ٣٥٣ للخورى منصور طنوس الخورى .

وسبق حادثة سنة الستين السنة العامية ١٨٥٤ م ، إذ وقع فى القسم الشمالى من لبنان بعد وفاة الأمير حيدر أبى اللمع حاكمه هيجان العامة ، فثار الفلاحون النصارى على الأمراء والمشايخ والملاكين ، بقيادة رجل بيطرى اسمه شاهين طنوس من ريفون[١] أشعل نار الثورة فى قضاء كسروان ، فلم تلبث أن امتدت إلى المتن ولبنان الشمالى ، فهجم الثوار على الأمراء الموارنة ومشايخهم وسلبوهم أملاكهم ، فجاءت تلك الثورة ضربة على المسيحيين عموماً فأصبحوا عرضة للأخطار والضربات وذلك لفقدان الزعامة بينهم ، ولم تقتصر حوادث سنة الستين المشؤومة على لبنان فحسب ، بل تخطته إلى دمشق ، وواليها يومئذ أحمد باشا الذى أوعز إلى الجند أن يساعدوا الثوار على ذبح المسيحيين عملاً بأوامر الباب العالى[٢] إلا أن الفضيلة لم تفقد أبناءها ، فقد حمى الأمير المبرور المغفور له عبد القادر الجزائرى نحو ألف وخمسمائة نفس فى منازله[٣] فكتب فى تاريخه صفحة مدادها الفخر والذكر الحسن والرحمات تترى على جدثه الطيب .

وبالرغم مما بذله قناصل الدول الأوربية من السعى فى سبيل تهدئة الحال وحقن الدماء ، لم يحرك خورشيد باشا والى بيروت ساكناً ، وكذلك رفيقه أحمد باشا والى دمشق ، فكأن منظر الدماء المسفوحة ، ظلماً وعدواناً ، قد راقهما وأطرب جلالة سلطانهما الرضىّ البال ، المتنعم فى قصره بين الجوارى والقيان والغلمان فى القسطنطينية . فنقل قناصل الدول الأوربية خبر المجزرة المروعة إلى دولهم . فقابلت أوربا من أدناها إلى أقصاها الخبر بصيحة الاستفظاع ، وطلب الرأى العام فى فرنسا من حكومته أن تتدخل فى الأمر حالا بدون إبطاء ، وتهب لنصرة مسيحيي لبنان وسوريا ، وتضع حدًّا لظلم العثمانيين . وفى أوائل تموز (يوليو) من السنة نفسها اجتمع الأسطول الفرنسى والإنكليزى فى مياه بيروت ، ونزل الجيش الفرنسى إلى البر . وتدارك السلطان ووزيره فؤاد باشا الأمر ، فسبق

---

(١) ريفون بلدة اصطياف تقع فى قضاء كسروان وتعلو عن البحر نحو ألف متر اشتهرت ببساتين التفاح والخضراوات .

(٢) الباب العالى : لقب مجلس السلطان العثمانى .

(٣) « مشهد العيان فى حوادث سورية ولبنان » طبعة مصر .

قواد الفرنسيين إلى دمشق لئلا يدخلوها ويطلقوا أيديهم فى الحكم ، وأمر بإعدام مئة شخص منهم أحمد باشا والى دمشق . ومن ثمّ عقد مؤتمر فى بيروت مؤلف من سفراء دول فرنسا وإنكلترا وروسيا وألمانيا والنمسا وفؤاد باشا وزير السلطان عبد المجيد الثانى ، وبعد مناقشات ومداولات وضعوا نظامًا جديداً للبنان ، أطلقوا عليه اسم « القانون الأساسى » وأقروا جعل لبنان لواء مستقلاً تابعًا للآستانة رأسًا ، يتولى رياسته متصرف مسيحى ينصبه سلطان تركيا بعد موافقة دول أوربا على تعيينه ، وقد جرى ذلك فى التاسع من حزيران (يونيو) سنة ١٨٦١ ، وبمقتضى هذا النظام قسم لبنان إلى سبعة أقضية مؤلفة من إحدى وأربعين ناحية ، فيها ٩٥٧ قرية ، أما الأقضية فهى : الشوف ، والمتن ، وكسروان ، والبترون ، والكورة ، وجزين ، وزحلة ، وسلخوا عن متصرفية لبنان المستقلة استقلالاً داخليًا ، وادى التيم والبقاع ومقاطعة صيدا وأخيراً بيروت وصور .

وكانت سن المترجم له يومئذ أربع عشرة سنة ، فيكون قد عاصر من متصرفى جبل لبنان ستة متصرفين هم :

داود باشا الأرمنى ١٨٦١ — ١٨٦٨ م
فرنكو باشا كوسى الحلبى ١٨٦٨ — ١٨٧٣ م
رستم باشا الإيطالى الأصل ١٨٧٣ — ١٨٨٣ م
واصه باشا الألبانى ١٨٨٣ — ١٨٩٢ م
نعوم باشا الحلبى ١٨٩٢ — ١٩٠٢ م
مظفر باشا البولونى [1] ١٩٠٢ — ١٩٠٧ م

٢ — الحركة الاجتماعية

بعد أن استقرت الحياة فى لبنان وسوريا واطمأن الناس إلى أنفسهم بفضل تدخل الدول الأوربية ، انصرفوا إلى الثقافة وكانت تباشيرها قد بدأت زمن

---

(١) « موجز تاريخ سوريا » للمطران يوسف الدبس . طبعة المطبعة العمومية المارونية . بيروت سنة ١٩٠٧ و « مختصر تاريخ لبنان وسوريا » منشورات مكتبة صفير ببيروت ص ١٨٢ — ١٨٧ .

الأمير بشير الشهابى الكبير [١] فرأينا اختلافاً يباين عصور آداب اللغة والأحوال الاجتماعية والسياسية جملة . وذلك لتأثير المدنية الأوربية واتصال الشرق بالغرب، وتأثير الإرساليات الدينية بما أنشأته من مدارس ومطابع ، كالإرسالية الأميركية والإرسالية اليسوعية وغيرهما ، على أن الحياة العقلية قديماً كانت تنمو نمواً داخلياً بما تبدعه قرائح أفراد من الكتاب والشعراء .

وأما فى عصر النهضة فقد توافرت الترجمات وطلعت فى سمائها كواكب الفكر الأوربى فاتجه اتجاهاً جديداً فى اللغة والأدب والفكر ، وكان للمترجم فضل كبير فى ذلك بما عقده من أبحاث علمية ولغوية وأدبية فقد رفع منار لغة الضاد وأعلى شأنها وألحقها بأرقى اللغات الأوربية فى جميع العلوم العصرية [٢] .

وكانت العوامل الأساسية فى بعث النهضة هى الآتية :

١ — إنشاء المدارس الحديثة .

٢ — الطباعة .

٣ — الصحافة .

٤ — روح الحرية الشخصية .

٥ — الجمعيات الأدبية والعلمية .

٦ — المكاتب العمومية .

٧ — المتاحف .

٨ — التمثيل .

٩ — اشتغال الفرنجة بآداب اللغة العربية .

فهذه العوامل كلها قد أثرت فى العقل الشرقى ولا سيما اللبنانى ، وبعثت نهضة لمسنا أثرها فى أدبنا المعاصر ، ولا نكران أن حقبة والد مترجمنا كانت حقبة

---

(١) راجع « نوابغ الفكر العربى » العدد السادس الشيخ ناصيف اليازجى ص ٦ - ٩ . طبع « دار المعارف بمصر » .

(٢) انظر المنتخبات و « الموجز فى الأدب العربى وتاريخه » . منشورات مكتبة صفير . بيروت ص ٢٤٣ .

تقليد[١] فيها شيء ضئيل جداً من الاتجاه نحو التجدد ، فما إن شب الشيخ إبراهيم عن الطوق حتى عمد إلى ديباجة النثر يلبسها حلة قشيبة فترسّم أسلوبه غير واحد من أدباء عصر النهضة ، ولعل جرجي زيدان يوضح لنا هذه الناحية أحسن إيضاح بما ننقل عنه[٢] بتصرف قال :

« إن أكثر ما ظهر من علوم اللغة فى العصر الأول من هذه النهضة لايخرج عما كتب قبله ، وأكثره تلخيص أو شرح أو تعليق على كتب القدماء . وظلت الحال على ذلك فى مصر إلى عهد غير بعيد . أما فى سوريا ، ولا سيما فى لبنان ، فقد حدث فى اللغة وعلومها حركة بين المسيحيين ، وكانوا إلى ذلك العهد قلّما يشتغلون فى اللغة وقل من ألف منهم ، وإذا ألفوا فلا يلتفت إلى تأليفهم ، ولا يوثق بأقوالهم . وكانت المدارس على اختلاف أديانها تعلم العربية فى الكتب القديمة كالأجرومية وابن عقيل والأشمونى والصبان والحريرى ونحوها .

فلما ظهر اليازجى الكبير [٣] فى أواسط القرن الماضى وقد تكاثرت المدارس النصرانية فى بيروت ، قرب الأميركان الشيخ ناصيف منهم وعولوا عليه فى تصحيح مسودات ترجمة التوراة وغيرها ، فألف أرجوزته — نار القرى — واختصرها ولده مترجمنا ، ووضع مقاماته ، مجمع البحرين ، وفصل الخطاب وغيرها ، وأقبل الطلاب على دراستها . . .

ثم ظهر أحمد فارس الشدياق فنظر فى اللغة نظراً تحليلياً ، ووضع كتابه " سرّ الليال فى القلب والإبدال " على نسق جديد سرد فيه الأفعال والأسماء الأكثر تداولاً ورتبها بالنظر إلى التلفظ بها لإيضاح تناسبها وتجانسها لفظاً ومعنى . وألف كتاب " الفارياق أو الساق على الساق " على أسلوب جديد فى اللغة العربية ، وبعد انتشار مذهب النشوء والارتقاء[٤] أصاب علوم اللغة شيء منه

---

(١) « نوابغ الفكر العربى » العدد السادس .

(٢) « آداب اللغة العربية » ج ٤ ص ٢٥٥ طبعة دار الهلال بمصر سنة ١٩١٣ .

(٣) هو الشيخ ناصيف اليازجى والد المترجم له .

(٤) نشر فيه مجلدين الدكتور شبلى الشميل وطبعا فى مصر فى مطبعة المقتطف .

فتولد علم الفلسفة اللغوية[١] وتولد أيضاً علم تاريخ آداب اللغة العربية ، ومداره النظر فى اللغة العربية باعتبار أنها كائن حى قابل للارتقاء بالنمو والدثور » . وانصرف مترجمنا الشيخ إبراهيم إلى النظر فى كتب أبيه واختصارها كما سنبين ذلك قريباً . وقام فى بيروت وفى لبنان قاطبة نهضة جديدة بفضل البستانيين والأسير واليازجيين والأحدب وغيرهم من رجال العلم والفكر ، وبما بعثه كرنيليوس فانديك[٢] من روح علمية فى أفئدة النشء ، فقد عمد إلى ترجمة كتب العلوم ككتاب « النقش فى الحجر » فى سبعة أجزاء ، و « الخلاصة الوافية فى الجغرافية » إلى غير ذلك .

٣ ـ الحركة الفكرية

أقبلت النهضة تتهادى على أجنحة الفكر وحب الاقتداء بالغرب ، والشعر على جموده لم يتغير فيه شىء يذكر ، لأن عوامل المدنية الحديثة ، لم تكن قد انتشرت بعد ، فلم تستنبت فى الأحوال الاجتماعية ما يؤثر فى القرائح والعقول ، أو يتناول أقلام الكتاب ، وقل الأمر نفسه فى النثر ، على أن الشعر سبقه فى النهوض والاتجاهات الجديدة ، فبعد سنة ١٨٦٠ م ترك الناس فى لبنان قراهم ووجهتهم بيروت ، وقدمها كذلك أناس من دمشق وغيرها ، وأقبل الفرنجة مرسلين وتجاراً وبثوا مذاهبهم وتعاليمهم فى المدارس والأسواق ، فدخل الشعر شىء من صبغة المدنية الحديثة والخيالات الشعرية التى تأثرت بها القرائح بوساطة المهاجرة أو مطالعة كتب الفرنجة الشعرية ، أو بما حدث فى مصر ولبنان من مظاهر المدنية وأسباب الحضارة الحديثة .

وتمشت روح الحرية الشخصية فى النفوس بشيوع العلم الطبيعى وغيره ،

---

(١) ظهر أول كتاب « الفلسفة اللغوية » سنة ١٨٨٦ فى بيروت لمؤلفه جرجى زيدان ، ثم ألف فى الفلسفة اللغوية الأستاذ جبر ضومط واسم كتابه « الخواطر » .

(٢) فانديك : رجل هولندى الأصل أميركى التبعة أتى لبنان فأحبه واتخذ عاداته وألبسته وبعث نهضة حية فى القلوب .

فكان داعية إلى حل القيود المتوارثة فى الاجتماع والأفكار وفى جملتها القيود الشعرية فتبدلت أساليب نظمها وطرق التصور والأخيلة ، وظهر غير واحد من الشعراء يقلد الأساليب الفرنجية وصفاً وغزلاً وقصة ؛ فكان لنا عدا الشعر الغنائى ، الشعر التمثيلى والحكمى والقصصى . ورق شعور الشعراء بتأثير التربية العلمية الحديثة . فأدركوا من عواطف الإنسان وقواه الشىء الكثير ، وتبين لهم من أسرار قلبه ما لم يعرفه القدماء . وما ذلك إلا من أثر الثقافة التى أخذوا أنفسهم بها ، فتخلصوا من الاستهلال والجناس وأنواعه ، وصاروا إذا نظموا فى غزل أو مدح أو رثاء ، تناولوه رأساً . على أنه بقى قلة من الشعراء المحافظين كانوا يعارضون أساليب القدماء ويتمسكون بطرق النظم فى الجاهلية وما بعدها .

وإنه لمن الخير لنا أن نسمع رأى مترجمنا فى الشعر قال : « معلوم أن الشعر من أعلى طبقات الكلام وأبعدها غاية ، لما يقتضيه من شرف الألفاظ ونباهة المعانى ، وسلامة الذوق والمبالغة فى التنقيح والتهذيب ، فابتذاله على ألسنة غير أهله مما يزرى به ويفسد رونقه ويسقط مزيته ، بل ربما أفضى إلى دفن كثير من جواهره فى صدور أربابه ، لأنه إذا أصبح متداولاً بين أيدى العامة ، وابتذاله من لا يحسنه أنف المجيدون له من انتحاله ، وتجافى كبراء أهل القول عن نزول كنفه »[١] .

وقد رأى الاهتمام بالشعر يستغرق معظم أوقاته فعدل عنه وانقطع إلى الإنشاء وتفرّغ للغة وآدابها ، وكان غيوراً على اللغة حريصاً على سلامتها من كلّ شائبة ، شديد الإنكار لما تشطّ به أقلام الكتّاب ، وله فى مجلّته « الضياء » مقالات انتقادية حمل فيها حملات عنيفة على أرباب القلم من قدماء ومحدثين ، ولم يسلم من تخطئة شعراء الجاهلية وأصحاب المعلّقات أنفسهم .

وكان كثير التأنق فى الخط ، كأنّ كتابته سلاسل الذهب وقلائد الدرّ ، وقيل إنه كان مفرطاً فى هذا لذلك كان بطيئاً فى نسخ مؤلفاته ، بحيث لم يؤدّ

---

(١) راجع المنتخبات .

للغة الخدم العديدة التى كان يترقبها جيله من مثله .

ولا بدّ لنا هنا من الإشارة إلى ما استدركه على علماء العروض ، فى الوزن المعروف بمخلّع البسيط ، وأثبت أن هذا الوزن يرجع إلى بحرين مختلفين هما : البسيط والمنسرح ، وليس من البسيط خاصّة كما هو المتعارف إلى هذا اليوم ، ووزن المخلّع البسيط هو :

مستفعلن فاعلن فعولن مستفعلن فاعلن فعولن

وقد نظم عليه عبيد بن الأبرص معلقته ومطلعها :

أقفر من أهله ملحوبُ فالقطبيّاتُ فالذّنوب

ووزن المنسرح هو :

مستفعلن مفعولات مفتعلن مستفعلن مفعولات مفتعلن

وعلى هذا يكون مخلع البسيط مزيجًا من بحرين هما البسيط والمنسرح .

ولا ريب أن حياته كانت سلسلة متراصّة الحلقات من التحصيل والعمل ، فقد ألمّ بالعربية إلمامة واسعة النطاق وشدا نظراً طيبًا من اللغات الفرنسية والإنجليزية والعبرية والسريانية ، وكانت له مشاركات فى العلوم الفقهية والرياضية والفلكية والطبيعية كما سنبيّنه فى دراستنا هذه .

أما القول فى النثر فسنبحثه عندما نتكلم عن إنشاء مترجمنا .